جامعة المصطفى العالمية
Al-Mustafa International University
مجمع القرآن والحديث

الدراسات القرآنية المعاصرة
السنة۱، العدد۱، الخريف (ربيع)، ۱۴۴۴
تاريخ التسلم: ۲۷ ربيع الاول ۱۴۴۴؛ تاريخ القبول: ۱۱ جمادى الاول ۱۴۴۴

طرق معالجة الفتن المذهبية في القرآن الكريم

حميد المياحي[۱]

الخلاصة

تناولت هذه المقالة موضوعًا مهمًّا في عصرنا الحاضر، ألا وهو طرق معالجة الفتن المذهبية من وجهة نظر القرآن الكريم؛ وذلك لكثرة الفتن والاختلافات المذهبية التي يحاول الأعداء استغلالها وإثارتها بين أبناء الدين الواحد، مع ملاحظة إمكان معالجة هذه الفتن والحدّ من انتشارها وتوسّعها بين المذاهب الإسلامية وأتباعها، فتهدف هذه الدراسة إلى محاولة إيجاد أفضل الطرق والأساليب لمعالجة هذه الظاهرة الاجتماعية والمذهبية، والاستفادة من معالجتها في تحقيق الآثار التربوية والأخلاقية للفرد والمجتمع الإسلامي، وقد توصّلت الدراسة إلى أنّ طرق معالجة الفتن المذهبية من خلال القرآن الكريم تتمحور في ما يلي:

الطريق الأول: ترسيخ ثقافة الوحدة ونشر روح الأخوة، وقد تمّ دراسة الآيات الداعية إلى الوحدة والآمرة بها والمؤكّدة عليها، وكذلك دراسة الآيات التي تذمّ التفرقة وتمنع من التشرذم وتحرّمه.

وكذا دراسة الآيات المؤسّسة لمفاهيم يؤدّي امتثالها إلى تقوية الوحدة وترسيخها أمثال: احترام الآخر، الثقة المتبادلة، حسن الظنّ والتعاون والمحبّة. وتحقيق هذا الطريق لمعالجة الفتن المذهبية يرتكز على مبادئ ومقدّمات، أهمّها: أصالة الوحدة الإنسانية، وأصل الأخوّة الإيمانية، وضرورة السعي لتشييد معالم الأمّة الواحدة الوسط، ووحدة مصادر التشريع، وضرورة الانصياع للأوامر الإلهية والنبوية، وعدم الغفلة عن حكم العقل بمصلحة الوحدة.

الطريق الثاني: الحوار العلمي بين علماء المسلمين الذي يبتني على أسس ومبادئ، أهمّها: التسليم بإسلام علماء كلّ المذاهب والتيّارات الفكرية والفقهية الإسلامية، وقبول حرّية الفكر والاجتهاد، والتسليم بضرورة معرفة الثوابت، والكفّ عن السباب والتشنيع.

الطريق الثالث: المشاركة و التعاون في الأمور الدينية والاجتماعية.

الطريق الرابع: معرفة عقائد الطرف الآخر وآرائه.

الكلمات المفتاحية: الفتن، طرق المعالجة، معالجة الفتن، المذاهب الإسلامية، القرآن الكريم.

---

۱. أستاذ سطوح في الحوزة العلمية في قم المقدسة، عراق mayahih40@gmail.com

المقدّمة

يحاول أعداء الإسلام زرع الفتن والتفرقة بين أبناء المذاهب الإسلامية بشتّى الطرق والأساليب، فحاولوا من خلال التكفير والتفسيق زرع الفتن بين أبناء المذاهب الإسلامية. والتكفير والتفسيق هما العاملان الأساسيان في تفريق الأمّة وتشتيتها وسلب أمنها وتدمير العيش المشترك والألفة الحاكمة بين المسلمين.

والقرآن الكريم والسنّة النبوية لم يغفلا هذه الأمور، فقد تضمّنت آيات القرآن الكريم وأحاديث السنّة الشريفة حلولًا لتلك الفتن ودرئها. وسيتّضح من خلال هذا البحث أنّ طرق معالجة الفتن وإزالتها تنوّعت في القرآن الكريم وعلى لسان مفسّريه الحقيقيين (أي النبيّ والعترة الطاهرة ﷺ)، فبيّنت أنّ طرق مواجهة الفتن المذهبية تكون من خلال بثّ ثقافة الوحدة والدعوة إلى أسس التقريب بين أتباع المذاهب الإسلامية، وكذلك تثقيف علماء الأمّة على الحوار الهادف والدعوة إلى فهم الطرف الآخر والاعتراف به، وكذلك التعاون على أساس البرّ والتقوى، وعوامل أخرى مهمّة.

المفاهيم التصورية

المفهوم الأوّل: المذهب

إنّ مفردة (المذاهب) هي جمع مذهب على وزن مَفعَل، واشتقّ من ذهب يذهب، وهو مفتوح العين، ومعناه عند الصرفيين يأتي على ثلاثة معانٍ: اسم زمان ومكان ومصدر ميمي منه، وأمثلته في علم الصرف هو المسلك والمذهب وأمثالهما.

والمذهب في اصطلاح علماء الملل والنحل، هو مجموعة الآراء والأفكار التي يراها أو يعتقدها إنسانٌ ما حول عدد من القضايا العلمية والسلوكية. [مانع الجهني، المسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ٢٠١٤]

المفهوم الثاني: الإسلام

مفردة الإسلام في اللغة العربية هي بمعنى الاستسلام، ويدخل فيه معنى الخضوع والانقياد، ومن أسلَمَ يكون قد أذعن وخضع لله ﷻ خضوعًا تامًّا بكلّ أوامره ونواهيه، والإسلام في اللغة أيضًا هو الدخول في السلم، ومصدر أسلمت الشيء إلى فلان إذا أخرجته إليه ومنه السلم في البيع، والإسلام في الشرع على

ضربين أحدهما دون الإيمان، وهو الاعتراف باللسان وبه يحقن الدم، حصل معه الاعتقاد أو لم يحصل، وإيّاه قصد الله ﷻ بقوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [سورة الحجرات: ١٤]، والثاني فوق الإيمان، وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقادٌ بالقلب ووفاءٌ بالفعل واستسلام لله في جميع ما قضى وقدّر. [الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، ١٤١٥]: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٣١].

وقد ورد لفظ الإسلام بهذا المعنى في القرآن الكريم عندما امتدح الله ﷻ نبيّه الكريم إبراهيم عليه السلام حين طلب منه ﷻ أن يذبح ابنه إسماعيل عليه السلام، فكان جوابه في الآية الكريمة: ﴿إذ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٣١]، أي أنّه استسلم لأمر الله ﷻ ولم يخالفه، كما أنّ خضوع العبد لله – تعالى – يعني أنّه محسنٌ عند خالقه، فقد جمع الله ﷻ بين الإسلام والإحسان في قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [سورة البقرة: ١١٢]، والله ﷻ يخضع ويسلّم له كلّ من في السماوات والأرض.

والإسلام اصطلاحًا هو الدين السماوي الخاتم الذي ارتضاه الله تعالى للبشرية جمعاء، وبعث به سيّد الأنبياء والمرسلين محمّد بن عبد الله ﷺ لهداية الثقلين الإنس والجنّ وتوحيده ﷻ في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته من خلال إخلاص العقيدة والتمسّك بمكارم الأخلاق ومراقبة الله في العبادات، وذلك بإقامة أركان الإسلام الخمسة وإعمال أركان الإيمان. وقد تبيّن من خلال ما مضى أنّ الإسلام اصطلاحًا لا يختلف كثيرًا عن المعنى اللغوي، كما جاء عن الشيخ المفيد في كتابه "الإفصاح": «لأنّ الإسلام عندنا إنّما هو الاستسلام والانقياد» [المفيد، محمد بن النعمان، الإفصاح، ١٤١٤].

المفهوم الثالث: الفتنة المذهبية

عرفت الفتنة بتعاريف لغوية واصطلاحية مختلفة، وقد عدّها علماء الأخلاق أحد مباحثهم الأخلاقية، ولكن الذي يهمّنا هنا هو بيان معناها اللغوي والاصطلاحي.

ومفردة "الفتنة" مصدر مشتقٌّ من "فَتَن" على وزن مَتْن، وجاءت في اللغة العربية على عدّة معانٍ، نذكر منها اثنين لأهمّيتهما:

المعنى الأوّل: بمعنى تطهير الشيء، قال الراغب الأصفهاني أنّها تعني: «وضع الذهب في النار للكشف عن درجة جودته وإصالته، وقال البعض إنّ المعنى هو وضع الذهب في النار لتطهيره من الشوائب» [الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، ١٤١٥ هـ].

المعنى الثاني: الفتنة بمعنى الابتلاء والامتحان، قال الطريحي: «الفِتْنة: الابتلاء والامتحان والاختبار،

وأصلها مأخوذ من قولك فتَنْتُ الفضّة والذهب إذا أذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيّد. والفتنة اصطلاحًا قيل في تعريفها بأنّها «المحنة وكلّ ما يشقّ على الإنسان، وكلّ ما يبتلي الله به عباده فتنة» [الطريحي، مجمع البحرين، ٢٠٢١]، وقال الجرجاني بأنها «ما يُبيَّن به حال الإنسان من الخير والشرّ» [الجرجاني، علي، التعريفات، ١٤٠٤ هـ].

وقال الراغب الأصفهاني: «والفتنة من الأفعال التي تكون من الله تعالى، ومن العبد كالبليّة والمصيبة، والقتل والعذاب وغير ذلك من الأفعال الكريهة، ومتى كان من الله يكون على وجه الحكمة، ومتى كان من الإنسان يكون بضدّ ذلك؛ ولهذا يذمّ الله الإنسان بأنواع الفتنة في كلّ مكان نحو قوله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [سورة البقرة: ١٩١]» [الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، ١٤١٥ هـ].

ويظهر ممّا تقدّم بأنّ معنى الفتنة المذهبية هي عبارة عن تشتيت الأمّة بإثارة الاختلافات الحسّاسة بغية إضعاف الأمّة الإسلامية وإذهاب ريحها والتسلّط على خيراتها ومقدّراتها ومصيرها، وعليه يكون معنى الفتنة متضمّنًا لمعاني الشرك والقتل والضلال وغير ذلك من المعاني التي ذكرت للفتنة.

المفهوم الرابع: القرآن الكريم

من المسلّم أنّ لفظ "قرآن" اسمٌ وليس بفعل ولا بحرف، ولكنّه اختُلف فيه من جهة الاشتقاق أو عدمه، ومن جهة كونه مهموزًا أو غير مهموز، ومن جهة كونه مصدرًا أو وصفًا، على أقوال عدّة:

القول الأوّل: إنّه اسمُ علَم غير منقول، وُضع من أول الأمر علمًا على الكلام المنزَّل من الله ﷻ على النبيّ الأعظم ﷺ، وهو اسم جامد غير مهموز، مثل التوراة والإنجيل. وعلى هذا فهو لم يؤخذ من "قرأت". [ابن منظور، لسان العرب، ١٤٢٥ هـ]

القول الثاني: إنّ لفظ "قرآن" مهموز، أي أنّ الهمزة فيه أصليّة من "قرأ"، وهو مصدر "قرأ" بمعنى "تلا" كالرجحان والغفران مصدران لـ "رَجَحَ وغَفَرَ". ثم نُقل من المصدر وجُعل اسمًا للكلام المنزّل على نبيّنا محمد ﷺ، ويشهد له قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [سورة القيامة: ١٨] أي: قراءته.

القول الثالث: إنّ لفظ "قرآن" مهموز، أي أنّ الهمزة فيه أصليّة، وهو وصفٌ على وزن فعلان مشتقٌّ من "القُرْء" بمعنى الجمع، ومنه: قرأ الماء في الحوض إذا جمعه، "وقرأت الشيء قرآنًا": جمعته وضممت بعضه إلى بعض، وسمّي القرآن قرآنًا؛ لأنّه جمع القصَص، والأمر والنهي والوعد والوعيد، والآيات والسور بعضها إلى بعض. [الزركشي، البرهان، ١٤٣٠ هـ]

القول الرابع: إنّ لفظ القرآن "غير مهموز" وهو مشتق من "قَرنْتُ الشيء بالشيء" إذا ضممت أحدهما إلى الآخر. قالوا: فسُميّ القرآن به: لقِران السور والآيات والحروف فيه، ومنه سمّي الجمع بين الحجّ والعمرة

في إحرام واحد قِران.

القول الخامس: إنّ لفظ القرآن "غير مهموز" وهو مشتقٌّ من "القرائن" جمع قرينة؛ لأنّ آياته يصدّق بعضها بعضًا ويشبه بعضها بعضًا.

ويظهر أنّ أرجح هذه الأقوال هو القول الثاني؛ لقرب اشتقاقه من كلمة القرآن لفظًا ومعنًى. وأصبح لفظ القرآن بعد ذلك علمًا على الكتاب المنزل.

والقرآن في الاصطلاح هو كلام الله المنزل على نبيّه محمّد ﷺ، المعجز بلفظه، المتعبّد بتلاوته، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر. وهو الكتاب المهيمن، الحافظ لمقاصد الكتب المنزلة قبله، الشاهد المؤتمن على ما جاء فيها، يقرّ الصحيح فيها ويصحّح الخطأ. ووصفه الله ﷻ بالإحكام في قوله ﷻ: ﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [سورة هود: ١].

وذكر هيمنته على الكتب السابقة في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [سورة المائدة: ٤٨]، ووصفه في أمّ الكتاب بأنّه "عليٌّ حكيمٌ" وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [سورة الزخرف: ٤].

طرق معالجة الفتن المذهبية في القرآن

الطريق الأوّل: ترسيخ ثقافة الوحدة والأخوّة

والأرضية الضرورية لنشر ثقافة الوحدة بين أبناء الأمة الاسلامية هي التقريب بين أتباع المذاهب الإسلامية، وهو شأنٌ من شؤون الوحدة بين أبناء هذه الأمّة، والوحدة في الثقافة الإسلامية عقيدة واستراتيجية، دعا إليها الله ﷻ في القرآن الكريم، والنبيّ الأعظم ﷺ وورثة علمه وثقافته أئمّة أهل البيت ﵈.

وقد حفل كتاب الله العزيز ـ وهو الكتاب السماوي للأمّة الإسلامية جميعًا، ويمثّل أحد أبرز المعالم المشتركة بين المدرستين الإسلاميتين العظيمتين: الشيعة وأهل السنّة ـ وحفل بالدعوة إلى الوحدة بين مؤلّفات الأمّة الإسلامية كافّةً، بجميع توجّهاتها وانتماءاتها، وشيّد هذا الكتاب المعجز والمعصوم سبل توحيد صفوفها.

وقد تصدّى القرآن الكريم لترسيخ قواعد الوحدة بين أبناء الأمّة الإسلامية بشتّى الطرق، فتارةً من خلال الآيات الداعية إلى الوحدة، والمؤكّدة عليها والآمرة بها، وتارةً أخرى من خلال الآيات الواردة في ذمّ التفرقة وتحريم التشرذم، وثالثةً إلى تشييد مفاهيم تشير إلى ضرورة تحقيق الوحدة بين مكوّنات المجتمع

الإسلامي وعناصره، والتي تعدّ أساسًا ومباني لوحدة المجتمع الإسلامي، كالأخوّة وحرمة الآخر والثقة المتبادلة، والنهوض بقضاء حوائج الآخرين، وكذلك آيات أخرى تتضمّن الدعوة إلى تشكيل مجتمع تكون الوحدة أبرز معالمه.

ومن الشواهد على النوع الأول من الهداية القرآنية للوحدة والتأكيد عليها والأمر بها، قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٤].

قال صاحب تفسير الميزان حول الآية الكريمة:

«هذه الآية تتعرّض لحكم الجماعة المجتمعة، والدليل عليه قوله جميعًا، وقوله: "ولا تفرّقوا"، فالآيات تأمر المجتمع الإسلامي بالاعتصام بالكتاب والسنّة، كما تأمر الفرد بذلك» [الطباطبائي، محمدحسين، الميزان في تفسير القرآن، ١٤٠٨ هـ].

وقال القرطبي في تفسيره: «إنّ الله تعالى يأمر بالألفة وينهى عن الفرقة، فإنّ الفرقة هلكة والجماعة نجاة. ورحم الله ابن المبارك حيث قال:

إن الجماعة حبل الله فاعتصموا // منه بعروته الوثقى لمن دانا» [القرطبي، شمس الدين، تفسير القرطبي، ١٤٢٤ هـ].

والشاهد على الأسلوب الثاني للقرآن الكريم في ترسيخ أواصر الوحدة الإسلامية الآيات الواردة في ذمّ التفرقة وتحريم التشرذم، قوله تعالى: ﴿**وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [سورة الأنفال: ٤٦]، وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [سورة آل عمران: ١٠٥].

كما أنّ الشاهد من القرآن الكريم على الأسلوب الثالث قوله ﷻ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ٧١].

والتدبّر في آيات الوحدة في القرآن الكريم، يأخذ بنا إلى أنّ المقصود بوحدة الأمّة الإسلامية التي دعا لها كتاب الله العزيز، هي وحدة الهوية الشخصية لأبناء الأمّة الإسلامية، ثمّ وحدة الكيان السياسي الذي ينتمون إليه، بما يفرضه ذلك من حقوق وواجبات.

والقرآن الكريم يصطلح على ما يسمّى بوحدة الهوية الشخصية بعنوان "الإخاء" كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّـهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ المؤمنون إخوة﴾ [سورة الحجرات: ١٠].

ويصطلح على ما يسمّى بوحدة الكيان السياسي واستحقاقاته بعنوان "الولاء" كما في قوله المكرّر في أكثر من آية شريفة: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ أُولَـٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّـهُ إِنَّ اللَّـهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ٧١].

إنّ معاني "المودّة" و"النصرة" و"التعاون" وغيرها ممّا تتحدّث عنها الكثير من الآيات القرآنية هي جميعًا من استحقاقات وحدة الهوية والكيان بين أبناء الأمّة الإسلامية.

وأمّا سيرة أولياء الدين عليهم السلام وكلامهم المرويّ عنهم فهو حافل بالدعوة إلى ذلك، ومن شواهده: قول النبي صلى الله عليه وآله: «مَثَلُ المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضو: تداعى له سائر الجسد بالسهرِ والحمّى» [الريشهري، ميزان الحكمة، ١٣٦٨ هـ]، وقوله صلى الله عليه وآله أيضًا: «من أصبح لا يهتمّ بأمور المسلمين فليس بمسلم» [المصدر السابق].

وقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «والزموا السواد الأعظم، فإنّ يد الله مع الجماعة، وإيّاكم والفرقة فإنّ الشاذّ من الناس للشيطان، كما أنّ الشاذّ من الغنم للذئب» [نهج البلاغة، الخطبة ١٢٧].

وقد جسّد المولى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الوحدة بصورتها الرائعة في تعامله مع الوضع الذي فُرض على الأمّة وأبتليت به في أمر الخلافة، رغم موقفه الصريح في عدم إعطائه الشرعية للوضع الذي نتج من اجتماع سقيفة بني ساعدة، لكن حفاظًا على أصل الدين وكيان الأمّة كان سلوكه عليه السلام سلوكًا وحدويًّا أخويًّا، وهكذا كانت سيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام من بعده.

وأمّا المفسّرون لكلام الله تعالى والعلماء المحقّقون، فقد نشروا روح الأخوّة والوحدة بين أبناء الأمّة الإسلامية من خلال تفسير النصوص القرآنية، وقد أدّت تلك التفاسير إلى رفع شعار الوحدة بين المسلمين، وتقديم إيضاحات جلية عن مفهوم هذه العقيدة والاستراتيجية الأساسية، ممّا ساهم في تنبيه المسلمين إلى ضرورة بناء الأمّة الواحدة.

يقول السيّد محمدحسين الطباطبائي في كتابه "الميزان في تفسير القرآن": «إنّ الرسالة وخاصّةً من حيث كونها مشفوعةً بالآيات البيّنات الدالّة على حقّيّة الرسالة ينبغي أن يختم بها بليّة القتال: إمّا من جهة أنّ الله – سبحانه – لمّا أراد هداية الناس إلى سعادتهم الدنيوية والأخروية بإرسال الرسل وإيتاء الآيات

البيّنات، كـان مـن الحـريّ أن يصـرفهم عـن القتـال، ويجمـع كلمـتهم علـى الهدايـة، فمـا هـذه الحـروب والمشاجرات بعد الأنبياء في أممهم، وخاصّةً بعد انتشار دعوة الإسلام الذي يعدّ الاتّحاد والاتّفاق من أركان أحكامه وأصول قوانينه. [الطباطبائي، محمدحسين، الميزان في تفسير القرآن، ١٤٤٠ هـ]

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه "الوحدة الإسلامية: «الوحـدة الإسـلامية حقيقـة ثابتـة بمقتضـى النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، فلا يعرف الإسلام الفرقة بالألوان أو بالعناصر والأجنـاس، أو باللغـات والثقافات، وقد كانت حقيقةً ثابتةً في الوجود، كما هي مقرّرة في النصوص، في عهـد النبـي ﷺ وفـي عهـد الراشدين، وما والاه من العهود التي قاربته في عهد ملوك بني أميّة وبني العباس» [أبو زهرة، محمد. الوحدة الإسلامية. بي تا].

أصول التقريب بين أتباع المذاهب الإسلامية في القرآن

من الواضح أنّ التقارب بين أتباع المذاهب الإسلامية – وبالأخصّ بين أهل السـنّة والشـيعة – لا بـدّ أن يبتني على أسس ومبادئ تعتبر الثوابت التي ينطلق منها التقريب؛ ليكون مبتنيًا على قاعـدة رصـينة لا تهـزّه العواصف الفئوية والسياسية، ومؤامرات أعداء الأمّة الإسلامية. وأهمّ هذه المبادئ والأسس يمكن تلخصيها على النحو التالي:

الأصل الأوّل: أصالة الوحدة الإنسانية بفطرتها التوحيدية [البعّاج، علي محمود، الاتّجـاه التقريبـي فـي تفاسير الإمامية، ١٣٩٨]؛ أخذًا بقوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ [سورة يونس: ١٩]، وقولـه ﷻ: ﴿**كَـانَ النَّـاسُ أُمَّـةً وَاحِـدَةً فَبَعَثَ اللَّـهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَـا اخْتَلَفُـوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّـهُ الَّـذِينَ آمَنُـوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّـهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [سورة البقرة: ٢١٣].

وقد جاء في تفسير هذه الآيات عن أئمّة أهل البيت ﷺ أنّها إشارة إلى فطرة الله.. فطرة التوحيـد، فقـد روي عن الإمام محمد بن علي الباقر ﷺ أنّه قال: «كانوا قبل نوح أمّةً واحدةً على فطرة الله لا مهتـدين ولا ضلّالًا فبعث الله النبيّين» [الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان، ١٤٤٠ هـ].

وعَنْ مَسْعَدَةَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الصادق ﷺ فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّـين مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ**﴾ فَقَالَ: «كَانَ ذَلِكَ قَبْلَ نُوحٍ، قِيلَ: فَعَلَى هُدًى كَانُوا قَالَ: بَلْ كَانُوا ضُلَّالًا؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا انْقَرَضَ آدَمُ وَصَلَحَ ذُرِّيَّتُهُ بَقِيَ شِيثُ وَصِيُّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى إِظْهَارِ دِينِ اللَّهِ الَّـذِي كَـانَ عَلَيْـهِ آدَمُ وَصَـالِحُ ذُرِّيَّتِـهِ، وَذَلِكَ أَنَّ قَابِيلَ تَوَاعَدَهُ بِالْقَتْلِ كَمَا قَتَلَ أَخَاهُ هَابِيلَ، فَسَارَ فِيهِمْ بِالتَّقِيَّةِ وَالْكِتْمَانِ، فَـازْدَادُوا كُـلَّ يَـوْمٍ ضَـلَالًا

حَتَّى لَمْ يَبْقَ عَلَى الْأَرْضِ مَعَهُمْ إِلَّا مَنْ هُوَ سَلَفَ وَلَحِقَ الْوَصِيِّ بِجَزِيرَةٍ فِي الْبَحْرِ يَعْبُدُ اللَّهَ، فَبَدَا لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَبْعَثَ الرُّسُلَ، وَلَوْ سُئِلَ هَؤُلاَءِ الْجُهَّالُ لَقَالُوا قَدْ فَرَغَ مِنَ الْأَمْرِ وَكَذَبُوا، إِنَّمَا [هِيَ] شَيْءٌ يَحْكُمُ بِهِ اللَّهُ فِي كُلِّ عَامٍ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿**فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ**﴾، فَيَحْكُمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا يَكُونُ فِي تِلْكَ السَّنَةِ مِنْ شِدَّةٍ أَوْ رَخَاءٍ أَوْ مَطَرٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ قُلْتُ: أَفَضُلَّالًا كَانُوا قَبْلَ النَّبِيِّينَ أَمْ عَلَى هُدًى؟ قَالَ: لَمْ يَكُونُوا عَلَى هُدًى كَانُوا عَلَى فِطْرَةِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَهُمْ عَلَيْهَا ﴿**لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**﴾، وَلَمْ يَكُونُوا لِيَهْتَدُوا حَتَّى يَهْدِيَهُمُ اللَّهُ أَمَا تَسْمَعُ يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: ﴿**لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ**﴾ أَيْ نَاسِيًا لِلْمِيثَاقِ» [العياشي، محمد بن مسعود، التفسير].

الأصل الثاني: أصل الأخوة الإيمانية والأمّة الواحدة الوسط. بمقتضى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ١٤٣].

الأصل الثالث: وحدة مصادر المشروعية الإسلامية. بمعنى أنّ المسلمين بكلّ مذاهبهم وانتماءاتهم الفرعية يستمدّون شرعيتهم من أصول ومبادئ هي مدارك عقيدتهم، كالقرآن والسنّة والعقل والفطرة، وهي مشتركة وواحدة بينهم. وقد رحل النبيّ ﷺ وأودع أمّته ثقلين ثمينين هما ضمان عزّهم وهدايتهم: كتاب الله وعترته أهل بيته ﵈ ما إن تمسّكت الأمّة بهما فلن تضلّ أبدًا، بمقتضى حديث الثقلين وغيره الكثير من الأدلّة.

الأصل الرابع: ضرورة الانصياع للأوامر الإلهية والنبوية بتحكيم الوحدة والابتعاد عن التفرقة، كقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٣].

الأصل الخامس: مقتضى حكم العقل (الحكمة) بحفظ الوحدة؛ إذ إنّ مصلحة الوحدة وبركاتها، ومضرّة التفرّق وأخطاره من بدهيات العقل، وقد أرشد القرآن إلى ذلك إذ قال تعالى: ﴿**وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾ [سورة آل عمران: ١٠٥].

الأصل السادس: وحدة المصير نفعًا وضررًا.

الأصل السابع: وجود العدوّ المشترك والأخطار الواحدة.

الأصل الثامن: أصالة المشتركات وفرعية الفوارق.

الأصل التاسع: تجربة الأمّة في ماضيها من أنّ قوّتها بوحدتها وفشلها بتفرّقها.

الأصل العاشر: أرضية التقريب لتحقيق الوحدة الإسلامية.

ولهذه الأصول شواهدها وإثباتاتها من القرآن والسنّة والعقل والتجربة، وبُحثت في المصادر التي كُتبت لموضوع الوحدة الإسلامية والتقريب بين أتباع المذاهب. ولعلّ الخوض فيها وتفصيلها هنا لا يتناسب وموضوع هذه الدراسة الذي هو: التفسير المقارن، ومحدّداته وأصوله وأنواعه. ولكنّ الإشارة إليها في هذه النقطة بهذا الإجمال لا يخلو من فائدة.

الطريق الثاني: الحوار العلمي البنّاء بين العلماء والنخب

إنّ الحوار والتفاهم بين الأفراد ممّا أكّد عليه القرآن والسنّة النبوية وروايات الأئمّة الأطهار، وكذلك سيرة العلماء عبر التاريخ، إذ كانوا يتحاورون في حلّ القضايا العالقة بين أبناء المذاهب الإسلامية. فالحوار لغة التعامل والاحترام المتقابل هو تعبير واضح عن التعايش المشترك والأخلاق الإسلامية.

والحوار لا بدّ أن يبتني على الإنصاف والموضوعية والاستدلال العلمي، وأن يكون بعيدًا عن الإهانة والتعصّب، بل يجب أن يتّخذ ويسلك الطريق العلمي والموضوعي، وأن يشتمل على القواعد المنطقية والاستدلالية، فالقرآن الكريم يأمر بأن يجادل أهل الكتاب بالطريقة الحسنة والأسلوب الحسن.

قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [سورة النحل: ١٢٥]، إنّ سيرة الأنبياء هي الدعوة إلى الله ﷻ، وتكون عبر الأسلوب الذي يبيّنه القرآن الكريم (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ)، والمراد بالحكمة العلم والمنطق والاستدلال، وهناك خطوة أخرى لا بدّ من لحاظها وهي الموعظة الحسنة؛ وذلك لما للموعظة من أثر دقيق وفاعل على عاطفة الإنسان وأحاسيسه وتوجيه مختلف طبقات الناس نحو الحقّ. [مكارم الشيرازي، ناصر، تفسير الأمثل]

وفي آية أخرى يخاطب الله ﷻ موسى وهارون ويأمرهما بالذهاب إلى فرعون الحاكم المتكبّر والطاغي، وأن يقولا له قولًا ليّنًا ولا يستعملا الأسلوب السيّئ في حوارهما معه، قال تعالى: **﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾** [سورة طه:].

﴿اذهبا إلى فرعون إنّه طغى﴾ "أي عتا وخرج عن الحدّ في المعاصي" ﴿فقولا له قولا ليّنًا لعلّه يتذكّر أو يخشى﴾ "معناه ادعواه إلى الله وإلى الإيمان به وبما جئتما به، على الرجاء والطمع، لا على اليأس من فلاحه. فوقع التعبّد لهما على هذا الوجه؛ لأنّه أبلغ في دعائه إلى الحقّ، بالحرص الذي يكون من الراجي

جامعة المصطفى العالمية
Al-Mustafa International University
مجمع القرآن والحديث

للأمر.

مع أنّ الآيتين ليستا بصدد بيان طرق الحوار مع المسلمين، بل الآية الأولى حول الحوار مع الكفّار والثانية تشير إلى الحوار بين موسى وهارون وبين فرعون، ولكن يمكن أن نأخذ هذا الدرس ونستخدمه مع المسلمين الذين هم بطريق الأولى أحقّ بالحوار والاحترام، وممّا يؤكّد ذلك روايات أهل البيت ﵈ التي تؤكّد على الأخلاق الحسنة والسلوك الحسن، ونحن نكتفي بهذه الرواية المرويّة عن جابر عن أبي جعفر الباقر ﵇ في قوله «وقولوا للناس حسنًا» قال قولوا للناس أحسن ما تحبّون أن يقال لكم، فإنّ الله يبغض اللعّان السبّاب الطعّان على المؤمنين الفاحش المتفحّش السائل الملحف، ويحبّ الحليم العفيف المتعفّف، ثمّ اختلف فيه من وجه آخر فقيل هو عام في المؤمن والكافر. [الطبرسي، مجمع البيان]

هذا من ناحية الآيات القرآنية، وأمّا سيرة الأئمّة ﵈ فهي مبتنية على التفاهم والحوار الحسن، وممّا يؤكّد هذا المطلب ما نقل عن المفضّل في حوار دار بينه وبين ابن أبي العوجاء ممّا قد أثنى على الإمام جعفر الصادق ﵇ من قوّة استدلاله وإنصافه، وهذا يدلّ أنّ شخصية الأئمّة معترفٌ بها حتّى عند منافسيهم.

أصول الحوار العلمي ومبادئه بين علماء المسلمين

الأصل الأوّل: التسليم بإسلام العلماء من المذاهب الإسلامية.

من الواضح أنّ التقريب العلمي بين المفكّرين والباحثين الإسلاميين من خلال المقارنة والدراسة في القضايا العلمية والفكرية، شريطة اعتراف الباحث العلمي المسلم بإسلام الطرف الآخر.

ومن الواضح أنّ أصول الإسلام التي لا اختلاف عليها بين المسلمين جميعًا، والتي لا يكون المسلم مسلمًا إلّا بها، واضحة لا غبار عليها، وهي:

الإيمان بالله تعالى ربًّا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا من عند الله تعالى، والإيمان بالآخرة وحياة ما بعد الموت، وبالقرآن كتابًا، وبالكعبة بيتًا محجوجًا وقبلةً، وبأركان الإسلام المعروفة المستفادة من الكتاب والسنّة القطعية، وبكلّ ما هو معلوم من الدين بالضرورة.

ومن الواضح أنّ هذه الأصول المُجمَع عليها بين الأمّة وعلمائها، هي التي تمثّل جوهر الإسلام وأساسياته، وكلّ من يؤمن بها من عوامّ الناس وعلمائهم مسلم يُحقن بها دمه وتجب حرمته، ويستحقّ بموجب الإسلام حقّ الأخوة الإيمانية في الله ورسوله ﷺ، وعندها يحرم خذلانه ومعاداته وإيذاؤه والإنحياز إلى من يعاديه أو يؤذيه، مهما يكن المذهب الذي ينتمي إليه. والأخبار المرويّة عن النبي ﷺ وعترته الطاهرة

ﷺ تثبت ذلك.

فعن جميل بن صالح عن سماعة قال: قلت لأبي عبد الله ﷺ: «أخبرني عن الإسلام والإيمان أهما مختلفان؟ فقال ﷺ: «إنّ الإيمان يشارك الإسلام، والإسلام لا يشارك الإيمان. فقلت له: فصفهما لي، فقال: الإسلام شهادة أن لا إله إلّا الله والتصديق برسول الله ﷺ، به حقنت الدماء، وعليه جرت المناكح والمواريث، وعلى ظاهره جماعة الناس ...» [الكليني، محمد ين يعقوب، الكافي، ١٤٢٩ هـ]، وروى القاسم الصيرفي شريك المفضّل عن الإمام جعفر بن محمد الصادق ﷺ أنّه قال: «الإسلام يُحقن به الدم، وتؤدّى به الأمانة، وتُستحلّ به الفروج، والثواب على الإيمان» [المصدر السابق].

وإذا كانت هذه الأصول هي الحدّ الفاصل بين المسلمين وغيرهم، أو هي فيصل التمييز بين الإيمان والكفر، فبحسب أتباع المذاهب الإسلامية المختلفة أنّ كلّ من حافظ على تلك الأصول وأخذ بها فهو مسلم.

قال الشيخ محمدحسن النجفي في كتابه في الفقه الاستدلالي "جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام": «ضرورة أنّ الإسلام شرعًا عبارةٌ عن الإقرار بالشهادتين، كما أنّ الكفر عبارة عن إنكارهما أو إحداهما» [النجفي، محمدحسن، جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، ١٣٩٢].

وقال الشيخ السبحاني في مقدمة كتابه "الإنصاف في مسائل دام الخلاف": «إنّ الإسلام عقيدة وشريعة، فالعقيدة هي الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر، والشريعة هي الأحكام الإلهية التي تكفل للبشرية الحياة الفضلى وتحقّق لها السعادة الدنيوية والأُخروية» [السبحاني، جعفر، الإنصاف في مسائل دام فيها الخلاف، ١٤٢٣].

وفي مصادر أئمّة أهل البيت ﷺ رويت أخبار أركان الإسلام، ومنها:

روى الكليني بسنده عن أبي جعفر الباقر ﷺ قال: «بني الإسلام على خمسٍ: على الصلاة، والزكاة، والصوم، والحجّ، والولاية، ولم يناد بشيءٍ كما نودي بالولاية، فأخذ الناس بأربعٍ وتركوا هذه - يعني الولاية» [الكليني، محمد ين يعقوب، الكافي، ١٤٢٩ هـ].

وعن زرارة، عن أبي جعفر الباقر ﷺ قال: «بني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة، والزكاة، والحجّ، والصوم، والولاية. قال زرارة: قلت: وأيّ شيءٍ من ذلك أفضل؟ فقال: الولاية أفضل لأنّها مفتاحهنّ» [المصدر السابق].

وقد روي في مصادر أهل السنّة عدّة روايات في ما يتحقّق به الإسلام، ومنها:

«عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: بني الإسلام على

خمسٍ: شهادة أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمّدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحجّ البيت، وصوم رمضان» [رواه البخاري ومسلم، وروى هذا الحديث أكثر مصادر أهل السنّة].

الأصل الثاني: قبول حرّيّة الفكر والاجتهاد في القضايا العلمية.

إنّ إمكانية التقريب بين العلماء من أتباع أئمة أهل البيت عليهم السلام وأهل السنّة من خلال مقايسة الإنتاجات العلمية، شريطة ألّا يحتكر كلّ طرف فهمَ الإسلام لنفسه، بأن يرى الآخرين خارجين عن الدين وليس لهم الحقّ في التعبير عن فهمهم واجتهادهم في الوصول إلى معنى النصّ القرآني، وما حملته الأحاديث الشريفة من علوم وحقائق، وهذا هو مقتضى حرّيّة الفكر واحترام الرأي الآخر، وضرورة الاجتهاد السليم من أجل الفهم الصحيح للدين، والابتعاد عن الغرور والعنجهية العلمية والاستبداد بالرأي؛ لأنّ الإسلام هو دين الدعوة إلى التفكّر والتدبّر والاجتهاد. ومن الواضح أنّ الإسلام شيّد أركان نهضة علمية، ومهّد لمساحات كبيرة لتوسعة العلوم وتربية العلماء وأهل الفكر والنظر.

يقول السيّد محمدحسين الطباطبائي: «إنّ هذا الدين كما يعتمد بأساسه على التحفّظ على معارفه الخاصّة الإلهية، كذلك يسمح للناس بالحرّيّة التامّة في الفكر، ويرجع محصّله إلى أنّ من الواجب على المسلمين أن يتفكّروا في حقائق الدين ويجتهدوا في معارفه تفكّرًا واجتهادًا بالاجتماع والمرابطة، وإن حصلت لهم شبهة في شيءٍ من حقائقه ومعارفه أو لاح لهم ما يخالفها، فلا بأس به، وإنّما يجب على صاحب الشبهة أو النظر المخالف أن يعرض ما عنده على كتاب الله بالتدبّر في بحث اجتماعي، فإن لم يداو داءه عرضه على الرسول أو من أقامه مقامه حتّى تنحل شبهته أو يظهر بطلان ما لاح له إن كان باطلًا، قال تعالى: **﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ [سورة الزمر: ١٨]**» [الطباطبائي، محمدحسين، الميزان في تفسير القرآن، ١٤١٥ هـ].

الأصل الثالث: التسليم بمرجعية الثوابت ووحدة الحجج.

وهذا أصل ضروري ومصيري من أجل الحوار العلمي والمقارنة الموضوعية التقريبية؛ لأنّ التقارب من خلال المقارنة هو فرع قبول أطراف المقارنة ـ أي الأطراف الذين وقعت المقارنةُ على نتاجهم العلمي ـ قبولهم الحجج المشتركة والثوابت المسلّمة في تفسير آيات كتاب الله العزيز.

ومن تلك الأصول والثوابت المشتركة، مرجعية القرآن نفسه لفهم آياته؛ «لِأَنَّ الْكِتَابَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَأَنَّهُ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾. وَإِنَّ الْقُرْآنَ ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ، لَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ، وَلَا تَنْقَضِي غَرَائِبُهُ، وَلَا تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِهِ» [نهج البلاغة، الخطبة ١٨].

ولأنّ المتكلّم به هو أولى من يوضّح مراده بكلامه، فإذا تبيّن مراده ﷻ به منه، فإنّه لا يُعدل عنه إلى غيره؛ ولذا عدّه ابن تيمية في مقدّمته في "أصول التفسير" أوّل طريق من طرق تفسير القرآن. [ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، مقدّمة أصول التفسير، ١٣٨٥ هـ]

واعتبر ابن القيّم في "التبيان في أقسام القرآن" تفسير القرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير [ابن القيّم الجوزية، محمد، التبيان في أقسام القرآن، بدون تاريخ]، وإنّما يُرْجَع إلى القرآن لبيان القرآن؛ لأنّه قد يرِد إجمال في آية تبيّنه آية أخرى، وإبهام في آية توضّحه آية أخرى، وهكذا.

وأيضًا الأخذ بالسياق والقرائن الداخلية والخارجية، وتخصيص عامّه بخاصّه وتقييد مطلقه بمقيّده، ويستعين على ذلك بقول اللغوي وسائر الطرق الممضاة في ميزان الشرع والعقل.

وكذلك مرجعية السنّة المطهرة والثابتة عن النبيّ ﷺ لفهم القرآن، فالسنّة في اصطلاح الأصوليين: «ما صدر عن النبيّ ﷺ من قولٍ أو فعلٍ أو تقرير» [الأنصاري، مرتضى، فرائد الأصول، ١٤٢٢ هـ]. وهذا هو القدر المتيقّن والمتّفق عليه بين جمهور المسلمين. وأمّا أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام فللأدلّة والبراهين التامّة لديهم في إمامة أئمّة أهل البيت عليهم السلام وعصمتهم وخلافتهم للنبيّ ﷺ، يُلحقون قول الإمام وفعله وتقريره بقول النبيّ ﷺ وفعله وتقريره، فالسنّة عندهم هي: قول المعصوم وفعله وتقريره [المظفر، محمد رضا، أصول الفقه، ١٤٠٥ هـ]، وعند غيرهم إضافة ما يرجع إلى الصحابي إلى السنّة أيضًا.

وثالث المصادر لفهم القرآن الكريم الأخذ بحكم العقل البرهاني والفطري الصحيح، فإنّه حجّة من الداخل كما أنّ النبيّ ومن نصّبهم النبيّ ﷺ بأمر من الله ﷻ حجّة من الخارج.

فقد روى هشام بن الحكم عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام أنّه قال: «يا هشام، إنّ لله على الناس حجّتين، حجّة ظاهرة وحجّة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمّة، وأمّا الباطنة فالعقول» [الكليني، محمد ين يعقوب، الكافي، ١٤٢٩ هـ].

الأصل الرابع: الكفّ عن التشنيع والاستفزاز.

وهذا الأصل يعدّ من آداب الحوار وأخلاق البحث العلمي، ولا يسلم أيّ بحث علمي موضوعي ومنه المقارنة التقريبية بين الأفكار إلّا بالالتزام بهذا الأصل.

ومن أصول الحوار العلمي وشرائط تحقّقه الموضوعيّة والبحث عن الحقّ والحقيقة، بإعمال التقوى العلمية في تحرّي الحقيقة والبحث عنها، والخروج من سلطان التعصّب الأعمى، بأنْ يجعل المتحاور الله ﷻ عليه رقيبًا، ويخشاه في حكمه واتّخاذه للموقف العلمي وأداء الأمانة العلمية على وجهها السليم، أم أنّه والعياذ بالله ينحاز إلى مسلّماته المذهبية ومسبوقاته الفئوية، فيفسّر النصّ ليتّخذ منه غطاءً لمآربه، فيتّهم

جامعة المصطفى العالمية
Al-Mustafa International University
مجمع القرآن والحديث

الآخرين ويفتري عليهم بغير ما أنزل الله من سلطان.

والموضوعية في كلِّ بحث علمي تقتضي أن يسير الباحث مع الدليل والبرهان، فعلى الباحث الموضوعي أن لا ينسب أمرًا إلى شخصٍ أو جماعة أو أصحاب عقيدة ومذهب، إلّا على أساس الدليل والحجّة، وأن يجد ما ينسبه إلى جهةٍ في مصادرهم وهم يصرّحون بذلك، لا أنّه يأخذه بالتقليد الأعمى من الشياع العامّ، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ الْسَمعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولَئكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا﴾ [سورة الإسراء: ٣٦].

الأصل الخامس: الاعتقاد بمنهج التقارب العلمي بين أتباع المذاهب الإسلامية.

وهذا أيضًا كسوابقه أصلٌ مهم وثابتة للانطلاق، لا بدّ منها؛ لأنّ من لم يعتقد أهمّيّة الوحدة وضرورة التقارب بين أتباع المذاهب الإسلامية، ولا سيّما التقارب العلمي المستند إلى الأدلّة والحجج والبراهين، ولا ينظر إليها كعقيدة أساسية تستسقى من صميم الدين ومصادره الأساسيّة، من لم يؤمن بذلك لا يمكنه أن يحقّق التقريب العلمي من خلال المقارنة العلمية

والخلاصة هي: أن يعتقد علماء المسلمين عمومًا والمفسّرون والمحدّثون والمقارنون في التفسير والحديث بشكلٍ خاص، بأنّ الوحدة الإسلامية واجبةٌ شرعًا، فليست هي عملًا ترغيبيًّا دعائيًّا يُروَّج إليه، بل هي أمرٌ لازم يلزم كلّ مسلم، وسيُسأل عنه يوم القيامة؛ ولذا كان كلّ ما يؤدّي إلى الوحدة واجبًا؛ لأنّ ما لا يتحقّق الواجب إلّا به فهو واجب بحكم الشرع والعقل.

والتقارب العلمي بين أبناء المذاهب الإسلامية يتحقّق بجمع الأمّة على الأصول الكلّيّة، وألّا يكون للاختلافات الجزئية أثر سلبي على الوحدة الإسلامية؛ لأنّ المقارنة العلمية لا تعني تخلّي المقارِن عن أصوله وثوابته، بل في ضمن محافظته على الثوابت والأسس التي ينتمي إليها، والمبرهن عليها بالأدلّة والبراهين الرصينة، يجب عليه أن يتحلّى بروح الموضوعيّة والنقد العلمي المنصف والهادف، وحتّى لمّا يقوم بعمليّة الترجيح التي هي أهمّ مراحل المقارنة وأدقّها، عليه ألّا ينحاز إلى مذهبه ويتعصّب له، بل عليه أن يكون تابعًا للدليل أين ما مال يميل.

الطريق الثالث: المشاركة والتعاون في الأمور الدينية والاجتماعية.

من جملة الأمور التي لها تأثير مهمّ في الوحدة والتقريب بين المذاهب الإسلامية التعاون والمشاركة في المسائل الدينية والأمور التي لها طابع اجتماعي، مثل الحضور في صلوات الجماعة والجمعة والعيدين،

وكذلك الحجّ؛ فإنّه حضور جماهيري من جميع المسلمين في البلاد الإسلامية، ومن جميع المذاهب يجتمعون ويؤدّون مناسكهم بشكل جماعي، وهذه أمور أكّدها القرآن وروايات أهل البيت عليهم السلام، والعلماء من الفريقين أيضًا؛ فإنّهم يجوّزون الصلاة خلف الشيعة والسنّة.

إنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام يؤكّدون الحضور في صلاة أهل السنّة، وقد روى سماعة عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «سألته عن مناكحتهم والصلاة معهم فقال: هذا أمر تمديد إن يستطيعوا ذاك قد أنكح رسول الله صلى الله عليه وآله، وصلّى عليٌّ عليه السلام وراءهم» [المجلسي، محمدباقر، بحار الأنوار].

الطريق الرابع: معرفة عقائد الطرف الآخر وأفكاره.

ممّا يساعد على التقارب والوحدة والعيش المشترك بين أبناء المذاهب الإسلامية التعرّف والاطّلاع الكامل على عقائد الآخرين الذين نريد أن نتعايش معهم؛ فإنّه يسبّب قلّة المشكل المذهبية والاقتتال المذهبي. يقول الشيخ محمدحسين كاشف الغطاء: «إنّ محمد أمين صاحب كتاب "فجر الإسلام" الذي تهجّم فيه على الشيعة عندما زار النجف الأشرف، واستضفته في بيتي، وعند ذلك لمته على طريقته بالتعاطي مع الشيعة، وأجاب أحمد أمين أنّي لم أكن على اطّلاع كافٍ على عقائد الشيعة» [محمدالحسين آل كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها].

ويقول الأستاذ أحمد حسن الباقوري: «والخلاف بين السنّيّين والشيعيّين خلاف يقوم أكثره على غير علم، حيث لم يتح لجمهور الفريقين اطّلاع كلّ فريقٍ على ما عند الفريق الآخر من آراء وحجج. وإذاعة فقه الشيعة بين جمهور السنّيّين، وإذاعة فقه السنّيّين بين جمهور الشيعة» [السيد مرتضى الرضوي، مع رجال الفكر في القاهرة]. وأمّا الشيخ عبد المجيد البشري فإنّه يقول بكلّ صراحة إنّي لم أتعرّف فيما مضى من أيّامي على دخائل الشيعة، ولم أبل أخلاقهم؛ إذ لم أجالس آحادهم، ولم أستبطن سوادهم. وكنت متلعلعًا إلى محاضرة أعلامهم، حران الجوانح إلى تخلّل عوامهم، بحثًا عن آرائهم، وتنقيبًا عن أهوائهم».

إنّ المعرفة قبل كلّ شيء ممّا أكّده القرآن الكريم حيث قال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا﴾.

وهناك روايات تنهي عن الفتيا من غير علم ونذكر روايتين

الأولى: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من عمل على غير علمٍ كان ما يفسد أكثر ممّا يصلح». ورواية أخرى عن الباقر عليه السلام ينهى فيها عن الإفتاء من غير علم: «عن أبي عبيدة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: من أفتى الناس بغير علم ولا هدًى من الله لعنته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ولحقه وزر من عمل بفتياه».

النتائج

أهمّ النتائج الحاصلة من خلال هذه الدراسة في الطرق لمعالجة الفتن بين أبناء المذاهب الإسلامية من خلال القرآن الكريم هي التالية:

الطريق الأوّل: ترسيخ ثقافة الوحدة ونشر روح الأخوّة، وقد تمّ دراسة الآيات الداعية إلى الوحدة والآمرة بها والمؤكّدة عليها، وكذلك دراسة الآيات التي تذمّ التفرقة وتمنع من التشرذم وتحرّمه. وثالثًا دراسة الآيات المؤسّسة لمفاهيم يؤدّي امتثالها إلى تقوية الوحدة وترسيخها أمثال: احترام الآخر، والثقة المتبادلة، وحسن الظنّ والتعاون والمحبّة. وتحقيق هذا الطريق لمعالجة الفتن المذهبية يرتكز على مبادئ ومقدّمات، أهمّها: أصالة الوحدة الإنسانية، وأصل الأخوة الإيمانية، وضرورة السعي لتشييد معالم الأمّة الواحدة الوسط، ووحدة مصادر التشريع، وضرورة الانصياع للأوامر الإليهة والنبوية، وعدم الغفلة عن حكم العقل بمصلحة الوحدة.

الطريق الثاني: الحوار العلمي بين العلماء المسلمين الذي يبتني على أسس ومبادئ، أهمّها: التسليم بإسلام علماء كلّ المذاهب والتيّارات الفكرية والفقهية الإسلامية، وقبول حرّيّة الفكر والاجتهاد، والتسليم بضرورة معرفة الثوابت، والكفّ عن السباب والتشنيع.

الطريق الثالث: المشاركة والتعاون في الأمور الدينية والاجتماعية.

الطريق الرابع: معرفة عقائد الطرف الآخر وآرائه.

المصادر والمراجع

١. آل كاشف الغطاء، محمد الحسين، أصل الشيعة وأصولها، دار الأضواء، بيروت ١٩٩٣ م - ١٤١٣ هـ
٢. أبو زهرة، محمد. الوحدة الإسلامية.
٣. البجنوردي، ميرزا حسن، القواعد الفقهية، مؤسسة إسماعيليان، قم، ط ٢، ١٤١٣ هـ.
٤. البعّاج، علي محمود. الاتّجاه التقريبي في تفاسير الإمامية.
٥. التويجري، عبد العزيز بن عثمان، وسطية الإسلام وسماحته ودعوته للحوار، موقع الإسلام، الشاملة.
٦. الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت عليهم السلام، قم، ط ١، ١٤١٢ هـ.
٧. الخامنئي، السيد علي، أجوبة الاستفتاءات، بيروت، الدار الإسلامية، ط ١، ١٩٩٩ م - ١٤٢٠ هـ.
٨. الرضوي، السيد مرتضى، مع رجال الفكر في القاهرة، مكتبة النجاح، القاهرة، ١٩٧٩ م.
٩. الزحيلي، وهبة، الفقه الإسلامي وأدلّته، دار الفكر، بيروت، ط ١.
١٠. السبحاني، الشيخ جعفر، مفاهيم القرآن، تحقيق: جعفر الهادي، مؤسسة الإمام الصادق، قم.
١١. الشحود، علي بن نايف، المفصل في أحكام الربا، مكتبة الرياض، السعودية، ط ١.
١٢. شرف الدين، عبد الحسين، المراجعات، مؤسسة الأعلمي، بيروت - لبنان، ١٩٩٦ م - ١٤١٦ هـ.
١٣. الشيرازي، السيد محمد الموسوي سلطان الواعظين، الفرقة الناجية، مكتبة الأمين، قم، ١٤٢٢ هـ.
١٤. الصدر، السيد موسى، في سبيل وحدة المسلمين، المكتبة الشاملة.
١٥. الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن، تفسير مجمع البيان، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٨هـ.
١٦. الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٧. الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٩٠ ش.
١٨. قرارات وتوصيات مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، المكتبة الشاملة.
١٩. الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، دار الحديث، قم، ط ٢، ١٤٢٩هـ.
٢٠. مجلة مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي بجدة، المكتبة الشاملة.
٢١. المجلسي، محمدباقر، بحار الأنوار، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٦٣ ش.

٢٢. المحقق الحلي، أبو القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن، المختصر النافع في فقه الإمامية، مؤسسة البعثة، طهران، ط ٤، ١٤١٣ هـ
٢٣. مكارم الشيرازي، الشيخ ناصر، القواعد الفقهية، مؤسسة الإمام أمير المؤمنين، قم، ط ١، ١٤٢٩ هـ.
٢٤. مكارم الشيرازي، الشيخ ناصر، أنوار الفقاهة، مؤسسة الإمام أمير المؤمنين، ١٤١١ هـ
٢٥. مكارم الشيرازي، الشيخ ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مؤسسة الإمام أمير المؤمنين، قم، ١٤٢٩ هـ.
٢٦. موقع المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.
٢٧. النائيني، محمدحسين، المكاسب والبيع، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدسة، ١٤١٣ هـ.
٢٨. نور الدين، عباس، الوحدة الإسلامية في فكر الإمام الخامنئي، مركز باء للدراسات، ط ١، ١٤٣١ هـ..
٢٩. النوري الطبرسي، ميرزا حسين، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م.